

الحمد لله رب العالمين

اللهم اسْعِنْ

صَبْرَةَ صَلَالِ التَّابِعِينَ

الحمد لله رب العالمين

أَمْ لِسْنَاتِ الْمُتَّهِمِينَ

دَارُ الْإِنْكَشَافِ

من - مدن

( ١٢ )

## أم سنان بنت خيثمة

\* فضيحة ، شاعرة ، لها قصة مع مروان بن الحكم ، ولقاء مع معاوية بن أبي سفيان ، قوله بالحق ، تجهر بالرأي .

## أم سِنَان بُنْتُ خَيْثَمَة

### نَصْرَاءُ عَلَى الْمُنْكَرِ

\* كان جندُ عَلَى بن أبي طالب عليه سحائب الرضوان ، أَحْفَلَ الأَجْنَادَ بِذَوَاتِ الْقَوْلِ الْفَعْلِ ، وَالرَّأْيِ الْجَزْلِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَكَانَ هُنَّ فِي « صَفَّيْنِ » مَقَامَاتٍ وَمَوَاقِفٍ مُحْمُودَةٍ ، صَرَّحَتْ أَسْمَاعُ الْمُعَانِدِينَ ، وَرَوَّعَتْ نَفْوسَهُمْ ! ..

\* وَمِنْ هُؤُلَاءِ النِّسَوةِ النَّصَارَاءِ ، بِكَارَةُ الْأَضْلَالِيَّةِ ، وَسُودَةُ بُنْتُ عَصَارَةِ<sup>(١)</sup> ، وَأُمُّ الْخَيْرِ بُنْتُ الْحَرِيشِ الْبَارِقَيَّةِ<sup>(٢)</sup> ، وَالزَّرْفَاءُ بُنْتُ عَدَدِيِّ ، وَعَكْرَشَةُ بُنْتُ الْأَطْشِ ، وَضِيقَةُ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ أُمُّ سِنَانَ بُنْتَ خَيْثَمَةَ بْنَ حَرَشَةِ الْمَذْحَجِيَّةِ<sup>(٣)</sup> ؛ وَغَيْرُهُنَّ كَثِيرَاتٍ مِنْ نَظَائِرِهِنَّ وَأَشْبَاهِهِنَّ مِنْ أَوْيَانِ جَوَامِعِ الْكَلْمِ ، وَجَهْنَمِ أَشْتَاتِ الْحَكْمِ ، بَيْنَ ازْدَحَامِ الصَّفَوْفِ ، وَنَحْتَ بَرِيقِ السَّيُوفِ ، فَلَمْ يَكُنْ يَجِدُهُنَّ كُثْرَةُ الْأَبْطَالِ ، وَلَا أَمْبَيْنَ الرَّمَاحِ ، أَوْ مَا شَابَهَ ذَلِكَ فِي مِيَادِينِ الْقَتَالِ .

\* وَلَا تِبَالْكِ الأَيَّامُ ، وَتَغْيِيرُتِ الْأَحْوَالُ ، وَاسْتَقْرَرَ الْأَمْرُ لِمَعاْوِيَةَ

(١) اقْرَأْ سِيرَتها في هذا الكتاب .

(٢) اقْرَأْ سِيرَتها في هذا الكتاب ففيها مواقف وِمَآثرٌ مُحْمُودَةٌ .

(٣) تاريخ دمشق (ص ٥٣٠) ، والعقد القريدي (١٠٨/٢) .

— رضي الله عنه — ، كان يستدعي بعض هؤلاء النساء الفحشيات ، ويستمع إلى بلاغتهن ، ويعجب بجرائمهن وصرافتهن أمامه ، خصوصاً عندما يُغليظن له بالقول — أحياناً — فكان معاوية — رضي الله عنه — أكبر همة ، وأسمى نفساً من أن يقدم على إيداع أي منهن أو قتلها مهما أغناطت له بالقول ، أو عرضت به ، بل كان — رضي الله عنه — يمادرهن بالصلة ، ومن ثم يرجعهن من حيث قدمن وقد نالتنهن جائزته .

\* ومن بين هؤلاء النساء الحاللات : أم سنان بنت خيثمة التي حفظت ذاكرة معاوية قطعة من شعرها يوم صفين ، كما حفظت ذاكرة رجل شامي قطعة أخرى من شعرها ، أما ذاكرة التاريخ فقد وعث كل ما قاله هؤلاء جميعاً .

\* \* \*

### من المدينة إلى الشام :

\* بعد أن انتهت موقعة صفين ، عادت أم سنان بنت خيثمة إلى المدينة المنورة ، وحطت رحالها هنالك ، واستقرت فيها ، وعندما ولَّ معاوية بن أبي سفيان — رضي الله عنهمَا — الخلافة ، ولَّ مروان بن الحكم المدينة المنورة مرتين من سنة (٤٢ - ٤٩ هـ) ، ثم تولاهما مرة أخرى سنة (٥٦ و ٥٧ هـ) .

\* وكان مروان بن الحكم مع أم سنان قصة ؛ أسمعته فيها من غليظ القول وخشن الكلام شيئاً غير يسير ، ثم توجهت إلى دمشق تشكوه إلى أمير المؤمنين معاوية لأنَّه جس حفيدها ، فالفتَّ لدى معاوية أذناً

صياغية ، وقضى حاجتها ، ولكن محاورة جرت بينهما كشفت لنا عن فصاحتها وبلاعتها وشاعريتها .. فلتعيش أحداث القصة من بدايتها .

فقد حبس مروان بن الحكم<sup>(١)</sup> - وهو والي المدينة - غلاماً من بنى ليث في جنایة جناها بالمدينة المنورة ، فأته جدة الغلام أم أبيه ، وهي أم سنان بنت خيثمة بن حرثة المذحجية ، فكلمته في شأن الغلام ، وطلبت أن يصفح عنه أو يخفف عنه الحبس .

ولكن مروان بن الحكم أغاظ لها في القول وانتهراها وزجرها ، فأغاظت له هي الأخرى ، ثم فكرت في الذهاب إلى مقر الخلافة فهناك معاوية ، وهو الذي يستطيع أن يرفع عنها الظلم فتجهزت وشدّت رحالها ، وتوجهت نحو دمشق ونفسها مملوقة غيظاً على ابن الحكم الذي لم يعرف مكانها وقدرها ، ومن ثم كبدتها عناء السفر ومشقتها .

\* \* \*

### أم سنان في مجلس معاوية :

\* لما قدمت أم سنان دمشق ، استأذنت على معاوية فآذن لها ،

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص ، القرشي الأموي ، الملك أبو عبد الملك ، مولده بمكة سنة (٢ هـ) وإليه يُنسب بنو مروان ، جعله عثمان - رضي الله عنه - في خاصته واتخذه كتاباً له ، وقاتل مروان في وقعة الحجل ، وشهد صفين مع معاوية ، ثم أمنه على - رضي الله عنه - فأتاه فباعه ، وأقام بالمدينة ، إلى أن ولّ معاوية الخلافة فولأه المدينة ، وفي سنة (٦٤ هـ) أصبح الخليفة بدلاً معاوية بن يزيد ، وهو أول من ملك من بنى الحكم بن أبي العاص . وتوفي بالشام في سنة (٦٥ هـ) وأنماره كثيرة ومشهورة في الكتب ( سير أعلام النبلاء : ٤٧٦/٣ - ٤٧٩ ) ، و (الأعلام : ٢٠٧/٧ ) .

فانسيت له فعرفها ، وأمرها بالجلوس ، فلما جلس قال لها : مرحبا يا ابنة خيثمة ، ما أقدمك أرضينا وقد عهدتني تبغضين قومي ، وتحضين علي عدوبي ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، إنّي عبد مناف أخلاقاً ظاهرة ، وأعلاها ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يسفهون بعد حلم ، ولا يتعقبون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع سنن آياته لآئته .

قال معاوية - رضي الله عنه - : صدقت يا أم سنان ، نحن كذلك . ثم سادت فترة حسمت ، قطعها معاوية بسؤال لأم سنان يذكرها فيها بشعرها وتحريضها عليه ، فقال لها : كيف قولك :

غَزَّ الرَّقَادُ فَمَقَلَّتِي مَا تَرْقَدَ  
وَاللَّيْلُ يُصَدِّرُ بِالْهَمْوَمِ وَيُورِدُ  
يَا آلَ مَذْجُعِ لَا مَقَامَ فَشَمَرُوا  
إِنَّ الْعَلَوَ لَآلِ أَحْمَدَ يَقْصُدُ  
هَذَا عَلَيْ كَاهِلَلَ تَحْفَةُ  
وَسْطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعَدَ  
مَا زَالَ مُذْ شَهَدَ الْحَرُوبَ مَظْفَرًا  
وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ

وكانت أم سنان - رحمها الله - تصرّفي لما ينشده معاوية من شعرها ، وما انتهى قالت له : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وإننا لنطمع أن تكون لنا خلفاً بعده ، فمثلك جدير بذلك .

و قبل أن يتكلّم معاوية بكلمة ، قال رجلٌ من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ، وأنا أحفظُ مِنْ شِغْرِهَا خلاف ما تقوله لك الآن ، فهذا  
القائلة :

إما هلكت أبا الحسن فلم تزل  
بالحق تُعرَفُ هادياً مهدياً  
فاذهبْ عليك صلاة ربك ما دعث  
فاليوم لا حلفٌ يؤتَى بعده  
فوق العصون حمامه قمرها  
هيئات غدرٍ بعده إنسينا

عندئذ قالت أم سنان وعلامة الحزم والصدق ترتسم على وجهها وهي  
تعرضُ بجلسائه : يا أمير المؤمنين ، لسانُ نطقَ ، وقولُ حُدَيْقَ ، ولعن  
تحققَ فيك ما ظننا فحظُك الأوفر ، والله ما ورثك الشَّناعة - البغض -  
في قلوب المسلمين إلا هؤلاء - وأشارت إلى بعض جلسائه - فادحضر  
مقالاتهم ، وأبعد متزلفهم ، فإنه إنْ فعلت ذلك ازدَدت من الله عزّ وجلّ  
قرباً ، ومن المسلمين حجاً .

وتعجبَ معاوية - رضي الله عنه - مما تقول ، فقطعَ عليها مقالتها  
قائلاً : وإنك لتقولين ذلك يا أم سنان ؟ ! .

قالت : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، والله ما مثلك مُدوخ بياطل ، ولا  
اعذرُ إليه بکذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا ، كان والله  
عليّ - رضي الله عنه - أحبُ إلينا منك إذْ كان حيّا ، وأنت أحبُ إلينا  
من غيرك إذْ أنت باقي .

فَسَأَلَهَا معاوية : وَمَنْ أَنَا أَحْبَبُ إِلَيْكُمْ مَا دَمْتُ بَاقِيًّا ؟

فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْتَ أَحْبَبُ إِلَيْنَا مِنْ مُرْوَانَ بْنِ الْحَكْمِ ،  
وَسَعِيدَ بْنِ الْعَاصِ .

قَالَ : وَبِمَا سَحَقْتُ بِذَلِكَ عَلَيْهِمَا ؟

قَالَتْ : بِمُحْسِنِ حَلْمَكَ ، وَكَرْمِ عَفْوِكَ .

فَقَالَ معاوية : وَإِنَّهُمَا لِيَطْعَمُنَّ فِي ذَلِكَ .

قَالَتْ : نَعَمْ ، فَهُمَا وَاللَّهُ لَكُمْ مِنَ الرَّأْيِ ، عَلَى مَا كَنْتَ عَلَيْهِ  
لِعَثَانَ بْنِ عَفَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١) .

قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ قَارِبَتِ .

وَانْتَهَىُ الْحَوَارُ هَذَا ، وَلَمْ يَعْدْ معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَسْأَلُهَا عَنْ أَيِّ  
شَيْءٍ .

\* \* \*

### إِكْرَامُهَا وَقَضَاءُ خَاجِجِهَا :

\* ساد صمت في مجلس معاوية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وَسَكَتَتْ أُمُّ  
سَفَانَ عَنِ الْكَلَامِ بَعْدَ أَنْ وَضَعَتْهُ فِي مَوَاضِعِهِ ، وَوَضَعَتِ النَّقَاطُ عَلَى  
الْحُرُوفِ ، وَكَانَ سَيِّدُنَا معاوية رَاضِيًّا كُلَّ الرَّاضِيِّ عَمَّا تَقُولُ أُمُّ سَفَانَ ،  
وَلِكُنَّ وَرَاءَ وَفَادِتِهَا عَلَيْهِ أَمْرٌ مَا وَلَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهِ بَعْدُ ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا :

(١) تَرِيدُ أَنْ مُرْوَانَ وَسَعِيدَ يَأْمَلَانَ الْخَلَافَةَ بَعْدَ معاوية ، كَمَا كَانَ معاوية يَأْمَلُهَا بَعْدَ عَثَانَ .

ما حاجتك الآن يا أمّ سنان؟

قالت: يا أمير المؤمنين، إنّ واليَك عروان بن الحكم تبُثك بالمدينة  
— أقام بالمدينة — تبُثك من لا يربِّد البراح منها، فلا يحكم بعدل، ولا  
يقضى بُشْرَةً، وهو يتبع عثرات المسلمين ويكشف عورات المؤمنين،  
وقد حبس ابن ابني فأتته، فقال كيت وكيت، فلم أسكك له وألقمه  
أخشى من الحجر، وألعقمه أمر من الصاب<sup>(١)</sup>، ولكنني يا أمير المؤمنين  
رجعت إلى نفسي باللامنة وقلت: لم لا أصرف ذلك إلى من هو أولى  
بالعفو منه، فأتياك لتكون في أمري ناظراً، وعليه معيناً وناصراً.

قال معاوية: صدقت يا هذه، فلا أسألك عن ذنب حفيذك، ولا  
أسألك القيام بمحجته، والدفاع عنه.

ثم قال لكتابه:

اكتبوا لأمّ سنان بإطلاقه وإخراجه من سجنه. فشكرت أمّ سنان  
معاوية على معروفه وقالت له: يا أمير المؤمنين، وأنّي لي بالرجعة إلى  
المدينة المنورة، وقد تغدر زادي، وكلت — ضعفت — راحلتي؟!

عندئذ أمر لها معاوية براحلة موطأ، ووصلها بخمسة آلاف درهم،  
وردها إلى المدينة المنورة وقد قضيت حاجتها، وكان لسانها يلهج بالدعاء  
لِمَا عَوَيْهَ<sup>(٢)</sup>.

(١) «الصاب»: شجر بهامة، إذا قطع منه عود خرج منه لين إذا أصاب العين  
آخرها. تربى أنها: أسكنته بمحجتها وشدة كلامها.

(٢) عن تاريخ دمشق (ص ٥٣١ و ٥٣٤)، وشاعرات العرب (ص ١٧٦ و ١٧٧)  
بتصرف يسر.

\* هذه أم سنان المذحجية ، إحدى نساء عصر التابعين ، ومن فُطِرت نفسها على الصِّفَاء والصِّرَاحة ، وأوْتِت شطراً من البلاغة والحكمة ما جعلها في سجل ناصع يحكي خلودها وخلود أمثالها .

\* رحم الله أم سنان بنت خيثمة ، ونضر قبرها ، وغفر لها ، فقد كانت يحقُّ امرأة قدوة في الصدق والوفاء .

\* \* \*